

تأرجح المعاتيق ما بين بهجة الطفولة و النضوج التراجيدي

الإنسان بطبيعته مفعور على حب الجمال و إن كان الجمال يعتبر نسبياً لأنه متفاوت لدى البشر لكن أغلبيتهم اتفقوا على الحنين للزمن الجميل و إنما سُمي جميلاً لأنه ينعم بالذكريات المفعمة بالدفع و المكتنزة بالسُرور و إن خولطت بشيءٍ من الوجع و كم تُحلقُ بنا التفاصيلُ الدقيقةُ لمعالمِ الطفولةِ إلى عالمٍ متَّقدٍ بالذكرياتِ اللذيذةِ ببراءتِها و سذاجتِها و أعلى درجاتِ الفرحِ فيها و أدنى دركاتِ الخوفِ ، و من هذا المنطلق نجد شاعراً كحبيب المعاتيق مزجَ الضوءَ بالحرفِ في ديوانِهِ (حزمة وجد) و في ديوانِهِ الموسوم بـ (معلقون على الأحداق) تطورَ هذا المزجُ إلى مرحلةِ الاندكالكِ الشعوريِ ففي كلِّ قصيدةٍ تُشاهدُ صوراً متحركةً متسلسلةً الأفكارِ تماماً كما ترى فلماً سينمائياً تم إخراجُهُ باحترافٍ بحيث تتأرجحُ التجربة بين عتبتَي البهجةِ الطفوليةِ و النضوجِ التراجيديِ.

العتبة الأولى البهجة الطفولية :-

يعرِّفُ رينيه ديكارت البهجةُ في كتابِهِ "انفعالاتُ النفس" بكونها (الحبُ الذي لدينا للأشياءِ الجميلةِ)

و لا يخفى على المتابع لتجربة حبيب عن كثبِ الزخم الشعوري المتدفق بالفرح و السُرور و التفاؤل لا سيما مع إطلالة كل خميس يستدعي براءة مفردات السعادة ليدخل بها السُرور على القلوب و منها (الورد الزهور- العصافير- الفراشة- الصحكة- العيد- اللذة- الجما- للعناق)

و لنا أن نتأملُ ثلاثةَ مشاهدٍ في التجربة تنم عن التعلق بحدقة البهجة الطفولية
ففي المشهد الأول :-

هو المتمثل بالتعلُّقِ بالأم يعيد لنا الذكرى التي لا تكاد تفارقنا بل نراها في حاضرةٍ في حياتنا
ما دام الأطفال يحومون حولنا :

يا أمانَ العالمِ

الطفلُ أنا ما زال يا أُمي

إذا أفلاتَ من مِلَفَعِكَ البُنِّيِّ ضاعُ

و إذا عُدتَ من (المولدِ) بالحلوى

عِشتُ يا أُمي

تباريحَ (الكثاكتِ) الجِباعِ

و في مشهدٍ طفوليٍّ آخر:

يُبدعُ في اصطيادِ لحظاتِ اللهو و القهقهةِ العفويةِ ليُسقطَها على الحالةِ العاطفيةِ التي تشي
للجلوس على مقعد المرجوحة لملامسة السماء كما كنا نطن كلما حزمنا أمتعتنا للتنزه مع الأهل أو
الأصدقاء :

يطيرُ بنا الحبُّ

أرجوحةً من حبالِ السعادةِ

ما بين جذعينِ

في كل جذعٍ جناحٌ

إذا دفعَتنا الأكفُّ نصيحُ من الزهوِ في أوجِ إيقاعِنا

فيَعلَقُ في السعفاتِ التي في الأعالي

بقايا الصياحِ

و في مشهدٍ ملوَّنٍ ثالثٍ :

يصوِّر لنا الحالةَ الذهبيةَ التي تعتري الأطفال مع تنفس صباحات الأعياد لحصد الأموال مع كل قُبلةٍ

تُطبع على جبين الكبار :

بادِ محياهُ هذا الطفلُ يُعجِبُنِي

من فرطِ ما جيدهُ

مما جنى بادي

يقولُ :

أجملُ ما في العيدِ فرحتنا

إنَّ النقودَ بجيبي

محضُ أعدادِ

العتبة الثانية النضوج التراجيدي :-

كما أن للبهجة نصيب من التجربة كذلك الألم له نصيبٌ متكافئ و تظهر مفردات الانكسار جليَّةً و
-مفضوحةً من البحة الصوتية التي تعتري صوت الشاعر أثناء حديثه و منها (الأسى- الوجد -العذاب- السجن
الغربة- الغياب-الخوف-الألم-التيه) و التراجيديا كما عرِّفها أرسطو هي (محاكاةٌ أيّ حدثٍ يثيرُ
انفعالَ الألمِ) عن طريق الشعر نجح المعانيق نجاحاً باهراً في تجسيد معاناته و التنفيس عن همومه و
قد حاول جاهداً التوغل في مشاعر الآخرين ليُجسِّدَ المعاناةَ الإنسانيةَ الحقيقيةَ بشتى صورِها و
لم يذهب جهده هباءً

و قد استعار ألسنة المحيطين به ليعبر عن همهم بقوله :-

ها نحن كونٌ مَثْقُلٌ بالهمِّ .

أثْقَلُ كائنٍ حيٍّ يطيرُ

و لأنه عاش الغربة و ذاق مرارة البُعدِ قرابة السنتان علَّـقَ كل الغرباء بحدقته مترقباً حضورهم :

الغائبون

اتَّـأدنا عن تأمُّلهم

لو كان هذا الحنينُ المرَّ يُتَّـئـدُ

و لنا أن نتساءل أي وجدٍ خيَّـمَ على حبيب لدرجة أنه يريد أن يعقد صفقةً مع العمرِ و لو تأملنا فحواها لاقشعرت جلودنا :

هل يقبلُ العمرَ لو كنَّا زُفـاً يـضُّهُ

سمتَ الكهولِ بضحكاتِ الصِّبـا الرِّـغـدة°

و الحقُّ يُقال من يقرأُ نصوصَ المعانيق يَشعرُ بأن الحياةَ تدبُّ فيها و الشاعرية تنقدُ بشكلٍ عفويٍّ في أخيلته . لأنه ببساطة يقدم رؤيته للواقع الإنساني بطريقة أكثر تأثيراً و إمتاعاً و هذا سرُّ الانجذابِ الذي يتمتعُ به ، فلا عجبَ أن تُطوِّعُ الكلماتُ لمن أخلصَ لتجربته ، فعندما ينغمر في موقف انفعالي تنثال فيه المعاني لتشكل ألواناً مكتنزةً بالإبداع.